العرب
الخميس 2021/09/30
السنة 44 العدد 12195

القاهرة التاريخية تعود إلى الحياة بحلة جديدة

مشروع ترميم المباني الإسلامية لتكون مزارا سياحيا فريدا

بعد أن قرر المصريون التحول إلى عاصمة جديدة تعددت الأسئلة حول مصير القاهرة التاريخية التي كانت نبضا للعاصمة المصرية، وأتت الإجابة من خلال مشروع ترميم المباني الأثرية لتكون مزارا سياحيا وثقافيا يرتاده الأجانب والمصريون كمتحف تراث يحفظ العمارة الإسلامية القديمة في تفردها.

معالم متفردة

القاهرة - تمضي مصر قدما في تنفيذ مشروع جديد لترميم وتطوير القاهرة التاريخية التي تغطي مساحة كبيرة أصبحت موقعا أثريا عالميا يرجع تاريخه إلى ألف عام، وكان مسرحا دارت فيه أحداث بعض حكايات ألف ليلة وليلة وذلك بعد أن ظهرت عليه أعراض التداعي السريع.

ويهدف المشروع إلى إحياء القاهرة والترويج لها كمزار سياحي في الوقت الذي تتأهب فيه الحكومة للانتقال إلى عاصمة جديدة تقيمها في الصحراء.

وأدرجت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) القاهرة القديمة، التي تُقدر مساحتها بنحو خمسة كيلومترات مربعة وتضم واحدة من أكبر مجموعات العمارة الإسلامية في العالم، في قائمتها لمواقع التراث الثقافي العالمي منذ عام 1979.

> اليونسكو أدرجت القاهرة القديمة كواحدة من أكبر مجموعات العمارة الإسلامية في العالم على قائمتها منذ عام 1979

ومنذ ذلك التاريخ تسعى وزارتا الثقافة والآثار لتطوير القاهرة التاريخية لحماية آثارها النادرة، ومن ثم انطلق مشروع إحياء وتطوير القاهرة التاريخية عام 1998، أي منذ نحو 23 عاما.

وتعطي الخطة دفعة جديدة لجهود يبذلها معماريون ومرممون متخصصون لإنقاذ المباني القديمة التي يخشون أن تختفي بسبب البيروقراطية والفساد والقيود القانونية.

ويقول بعض المهندسين المعماريين والمتخصصين في ترميم العمارة الإسلامية إن الحكومة تأخذ في الاعتبار الآن السكان والحرف والنسيج التاريخي والبنية التحتية بدلا من التركيز على الآثار فقط.

وقال المهندس محمد الخطيب المنسق الرئيسي لمشروع تطوير القاهرة التاريخية "حدث تداخل كبير بعد الثورة، فدخلت مبان كثيرة في القاهرة التاريخية لا تنتمي لها سواء من حيث الطابع أو الشكل، نحن نحاول معالجة واجهاتها، وتبقى جزءا من التكوين الرئيسي للقاهرة التاريخية، ونحاول أن نطمئن الناس بأننا سنتعامل مع تطوير القاهرة وليس إزالتها".

وأضاف أنه سيتم بناء شقق سكنية منخفضة الارتفاع على قطع الأرض الشاغرة في المنطقة التاريخية حيث يتم نقل السكان وورش العمل إليها لتتم إعادة بناء وترميم المباني المهدمة.

ولفت إلى أن الميزانية لم تعد تمثل مشكلة، لكنه لم يذكر تقديرا للتكلفة. وأكد أن الحكومة أبلغته أنه ستتم الموافقة على أي ميزانية للقاهرة التاريخية.

وسيبدأ العمال قريبا في العمل على تحسين واجهات المباني القديمة حتى تلك غير المسجلة باعتبارها مباني تراثية وذلك لتتناسب مع الشكل العام للمباني القديمة في المنطقة.

وقال الخطيب إن الخطة تقتضي أيضا تحويل بعض الوكالات، أو ما كان يطلق عليه الخان حيث كان يقيم المسافرون وقوافل التجار، إلى فنادق صغيرة وهي فكرة حققت نجاحا في مواقع أخرى في الشرق الأوسط.

وأضاف "بدأنا فعلا في العمل بعد أن انتهت المفاوضات مع السكان".

وأوضح أن الحكومة تعتزم ترميم حوالي عشرة في المئة من المنطقة في مرحلة أولى تستمر عامين وأنها تدرس مقترحات لإنشاء كيان واحد للقاهرة التاريخية التي تبلغ مساحتها تقريبا 30 كيلومترا مربعا.

وسيتركز جانب كبير من العمل في البداية على تطوير الأحياء حول ثلاث بوابات عريقة بناها الفاطميون الذين حكموا مصر قرنين من الزمان بعد فتح القاهرة في سنة 969 ميلادية.

وكان باب زويلة أحد هذه البوابات وشارع سكة الحبانية إلى الجنوب منه مسرحا دارت فيه أحداث بعض حكايات ألف ليلة وليلة.

وتعج القاهرة التاريخية بالورش والأسواق والبيوت القديمة والحرف التي استقرت في بعض شوارعها منذ مئات السنين.

وقال جيف آلن من الصندوق العالمي للآثار الذي يعمل على ترميم مجمع ديني للمتصوفين يرجع تاريخه إلى القرن السادس عشر ويقع جنوبي باب زويلة "مدن قليلة في العالم بها كل هذه الطبقات من التاريخ وتمتد لفترات بعيدة كهذه".

ويخشى بعض المرممين والمهندسين المعماريين أيضا من تعقيد وتكلفة عملية الترميم واحتمال أن تتحول المباني التاريخية إلى ما يشبه المباني التي تقيمها ديزني تقليدا لآثار عريقة.

وعن ذلك قال الخطيب "هناك درجات مختلفة جدا في التعامل مع كل المشروع، هناك ترميم المباني الأثرية والمسجلة كتراث، وهناك أيضا المباني غير المسجلة ونحن نرى أن لها قيمتها، لذلك لا يمكن ترك هذه الأماكن مجرد خرابات ونقول نتركها حتى لا تتحول إلى ديزني لاند، فهذا كلام ليس مسؤولا أصلا".

وأكد الخطيب أنه سيتم الحفاظ على طابع المنطقة.

وقال علاء الحبشي المعماري والمرمم المتخصص في العمارة الإسلامية الذي طُلب منه المساهمة في وضع خطة التطوير، إن الحكومة تأخذ في اعتبارها الآن السكان والحرف والنسيج التاريخي والبنية التحتية دون التركيز على الآثار وحدها.

وأضاف أن التغيير كبير وأنه كان مطلوبا منذ مدة طويلة، غير أن التنفيذ هو المفتاح. وأشار إلى أنه يخشى حدوث تأخير كما يخشى من تعديل المبادئ التي صيغ المشروع بأسره على أساسها أثناء التنفيذ.

وفي نهاية المشروع سيتحول قطاع كبير من القاهرة التاريخية إلى مناطق للمشاة فقط.

وقال الخطيب إن المرحلة الثانية ستمثل بداية التعامل مع المباني التاريخية وليست المقيدة في قوائم المباني التاريخية الرسمية فقط. وأضاف أنه سيتم توثيق جميع المباني وترميمها وإعادة استخدامها.

ويؤكد الخبراء أن مشروع ترميم القاهرة التاريخية هو أحد أهم المشروعات التي يجب أن يتم الانتهاء منها سريعاً، لأنه كفيل بإحياء السياحة المصرية، خاصة أنه يتضمن الحفاظ على المباني الأثرية التي لا يمكن تعويضها.

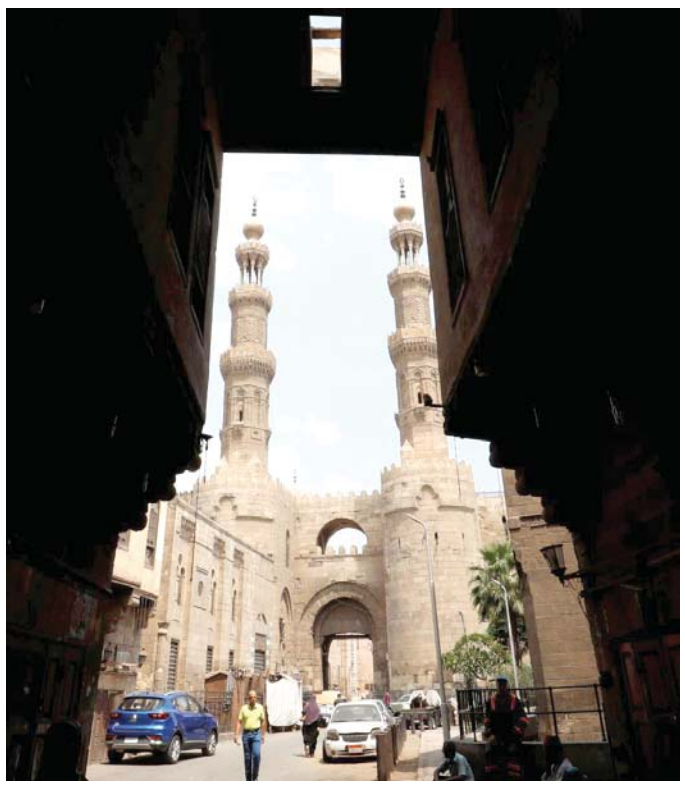

أبواب الأسوار تحفظ المدينة

قبر الجندي المجهول في تونس صندوق ألغاز وأساطير

تونس - وسط ظلمة الطريق الممتد والمتعرج داخل سوق السكاجين في تونس العتيقة يبرز للمارة من بعيد قبر تحيطه أسوار حديدية، ولكن لا أحد ممن تعودوا المرور بهذه الطريق في المساء يأبه له.

يتوسط القبر الذي بني فوق ثلاث درجات رخامية الممر الضيق، حيث تمتد على جانبيه المحلات في السوق الذي عرف تاريخيا بصناعة وبيع مستلزمات الفروسية منذ القرن الخامس عشر، وقد رشقت على أطرافه الأربعة قباب نحاسية صغيرة.

ورسمت على سطح القبر وجوانبه لوحات تحمل أشكالا دائرية وذات أقواس أندلسية مزركشة ممزوجة برسم الزهور، ويطغى على الرسوم اللون الأخضر. ولكن لا يحمل القبر الذي مثل مصدر فضول المارة من هناك أي إشارات أو معلومات تاريخية بشأنه.

وسوق السكاجين يرمز في الأصل إلى كلمة الشكازين وهم الحرفيون المتخصصون في تجميل جلود السروج ولباس الفرسان. وهذه حرفة شائعة في السوق خلال القرون الماضية وظلت صامدة حتى القرن التاسع عشر ولكنها تكاد تقتصر اليوم على اثنين أو ثلاثة من الحرفيين.

وأغلب المحلات المحيطة والقريبة من القبر المجهول باتت متخصصة في بيع الجلد ولوازم الزينة التقليدية والفضة وغيرها من السلع. وترجح بعض الروايات أن القبر يعود إلى أول ضحية سقط برصاص الاستعمار الفرنسي الذي دخل تونس في العام 1881. ولكن هذه الرواية لا تلقى صدى كبيرا لأن تقديرات أخرى تقول إن القبر يعود إلى حقبة أقدم من تلك الفترة بكثير، وتحديدا قبل نحو 500 عام.

ويتناقل الحرفيون والباعة في السوق روايات متضاربة لا تستند إلى مصادر علمية، ولكنها تنسب إلى التراث المنسي وغير الموثق.

وفي العموم يختلف القبر المجهول في تونس عن التقليد الشائع في الدول الغربية التي عممت هذه التجربة بعد سقوط الملايين من الجنود الضحايا في الحرب العالمية من مجهولي الهوية، لتكون تماثيل القبور المجهولة في الولايات المتحدة وأغلب الدول الأوروبية وحتى بعض الدول العربية، بمثابة تكريم للضحايا المنسيين.

ويقول بائع للفواكه الجافة قبالة القبر "لا أحد يعرف سر هذا القبر وما إذا كان قد دفن به فعلا شخص ما. الروايات عديدة ولكن أشهرها أنه يعود لبطل قاوم بشراسة الاحتلال الإسباني".

وتستند هذه الرواية الشعبية الأولى إلى ما يتناقله الأجداد ويحفظونه الأهالي القاطنون بمحيط السوق، حيث تروي أن جنودا من الاحتلال الإسباني الذي استولى على العاصمة تونس عام 1535 لمدة 40 عاما، قتلوا امرأة حامل لتوأم في بطنها تم دفنها في القبر المجهول.

وفي المقابل تقول الرواية الثانية وهي الأكثر تداولا في السوق حيث رواها أكثر من حرفي من أصحاب المحلات القريبة من القبر، إن جنودا من الإسبان تحرشوا بفتاة مع والدتها وقد أرادوا اغتصابها فما كان منها إلا أن قاومت حتى قتلت جنديا ثم تكفل أبناء الحي بقتل جندي ثان.

لكن باقي الرواية تقول إن الاحتلال الإسباني بعث بإمدادات إضافية من الجنود لإنهاء المقاومة والقصاص من قتلة الجنديين. وقاموا بالفعل بقتل المقاومين بما في ذلك الإخوة السبعة للفتاة.

> التجار والحرفيون في سوق السكاجين يُصرون على أن قبر الجندي المجهول يحرس المكان ببركته وكرامته

ويشير حرفي ستيني يبيع الجلد على مقربة من القبر إلى باقي الرواية، قائلا "إن الأخ السابع للفتاة ظل يقاوم الجنود حتى آخر رمق إلى أن فصلوا رأسه عن جسمه، لكن جسمه ظل يتحرك إلى أن انهار في مكان الضريح حيث دفن".

ومع ترسخ هذه الرواية الأسطورية، لا يذكر المؤرخون بدقة قصة هذا القبر المنسي في سوق السكاجين كما لم تتعرض الكتب التاريخية إلى أي أحداث تحيل إلى القبر المجهول، وقد فتح هذا الفراغ المعرفي العلمي الباب أمام انتشار الروايات والخرافات من حوله حتى تحول إلى مصدر إلهام لنسج الأساطير.

وأقرب تفسير إلى العلم هو ما ذكره المتخصص في تاريخ مدينة تونس العتيقة وحكم ملوك البايات عبدالستار عمامو، حيث نفى وجود ما عرف بالقبر المجهول في تونس، ورجح أن يكون القبر المنسي وسط السوق كآخر القبور المتبقية من مقبرة قديمة في العاصمة تمت إزالتها بسبب التوسع العمراني في القرن التاسع عشر.

ويضيف عمامو أن 16 قبرا بقيت من المقبرة القديمة تم التخلص منها جميعا ما عدا القبر المنسي الذي رجح أن يكون لشخصية يطلق عليها اسم "الإمام الرصاع"، لكن بسبب عزلته حيكت من حوله الخرافات التي استمرت حتى اليوم.

وتقول رواية أخرى شائعة ومعاصرة إن السلطات حاولت التخلص من القبر بعد الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي في خمسينات القرن الماضي، لكن الأعوان سرعان ما عدلوا عن الفكرة بمجرد أن لاحظوا الدماء تتسرب منه وهم ينهالون بفؤوسهم لتحطيمه.

ولا يوجد ما يوثق هذه الحادثة في السجلات الرسمية لبلدية تونس، ولكن بدلا من إزالته يجري ترميم القبر بشكل دوري ليحافظ على مكانه كمعلم تاريخي مجهول بينما يصر من في السوق على أنه يحرس المكان ببركته وكرامته.

وفي عام 2013 تعرض القبر إلى عملية تخريب من قبل مجهولين ضمن موجة من العداء من قبل جماعات سلفية ضد الزوايا الصوفية ومقامات وأضرحة الأولياء الصالحين المنتشرة في المدينة العتيقة، ولكنه جرى ترميمه من جديد ليحافظ على مكانه إلى أجل غير معلوم.

سرّ تاريخي